سلطة النص العقدي في المغرب العربي..أبو عبد الله السنوسي أنموذجا.

The authority of the doctrinal text in the Arab Maghreb... Al-Senussi as a model.

عبد القادر شلحي[1,*]، عمر برابح[2]

[1، 2] جامعة قاصدي مرباح ورقلة، (الجزائر)

[1، 2] مخبر علم النفس العصبي، والاضطرابات المعرفية، والاجتماعية العاطفية (الجزائر).

تاريخ الاستلام : 2023-07-24؛ تاريخ المراجعة : 2024-03-25 ؛ تاريخ القبول : 2024-03-31

ملخص :

يعد موضوع النص العقدي في الساحة المعرفية العربية الوعاء الذي احتضن قيم وسلوكيات المجتمع العربي والإسلامي. إذ يعد في ميدان المعرفة سلطة، وخاصة حين يتجلى كمركزية أساسية عند أبي عبد الله السنوسي من جهة والمجتمع العربي من جهة أخرى. سنحاول في هذا المقال أن نبرز مكانة العقائد الدينية والنصوص السنوسية في العصر الحديث وفق منظور فعلي بصفته نموذج التأثير في الأواسط المغربية العربية، من خلال إبراز سلطة أبي عبد الله السنوسي المعرفيةدون أن يتَأثر نصه العقدي بالاضطرابات السياسية والتحولات الاجتماعية.

الكلمات المفتاح : سلطة؛ نص؛ معرفة؛ عقيدة.

Abstract :

The subject of the doctrinal text in the Arab epistemological arena is the vessel that embraced the values and behaviors of Arab and Islamic society. In the field of knowledge, it is considered an authority, especially when it manifests itself as a fundamental centrality of Abu Abdullah Al-Senussi on the one hand and Arab society on the other. In this article, we will try to highlight the place of religious beliefs and Senussi texts in the modern era according to an actual perspective as a model of influence in the Maghreb-Arab medium, by highlighting the cognitive authority of Abu Abdullah Al-Senussi without his doctrinal text being affected by political turmoil and social transformations.

Keywords: authority - text - knowledge - doctrine.

* عبد القادر شلحي.

I. تمهيد:

النص في ميدان المعرفة سلطة، وأي سلطة حين يتجلى كمركزية أساسية يغدو فيها مناط العمدة في سائر الأزمنة والأمكنة، ونخص بالذكر نص السنوسي في الأوساط العربية. فحينما تدعونا الضرورة إلى البحث عن مفهوم ومكانة النص الابستيمي في مجتمعات الوطن العربي، فإنه يدعونا إلى استحضار مفهوم يحتل في الساحة الدينية والفلسفية مكانة هامة، إنه مفهوم "السلطة". على ضوء هذا الأخير سنحاول إبراز مفهوم السلطة المعرفية السنوسية وفق التطور التنظري لمنهج السنوسي، وإبراز مكانة العقائد في العصر الحديث وفق منظور فعلي من جهة أخرى. وليس ادل على ذلك من مرجعيات العقائد الدينية والنصوص السنوسية، بصفته مكملا جامعا لشظايا الفرق الكلامية الكلاسيكية. ففي العصر الحديث مع مأساة ونكوص المعرفة وتراجع العقل العربي، تتراءى لنا صورة النص السنوسي في نهضة معرفية وأخلاقية فردية واجتماعية وإسلامية بشكل منتظم.

المشكلة: ما طبيعة نص السنوسي في الوطن العربي (شمال إفريقيا)؟ وماهي النظرة التقليدية والحديثة لمفهوم العقائد؟ وكيف تم سلطنت مجتمعات المغرب العربي بآلية العقائد؟

المنهج:

اعتمدنا في هذه الورقة البحثية على منهج أو بالأحرى مناهج، لأن الموضوعية في العمل قادتنا إلى استعمال ما أمكن من المناهج، وخاصة الموضوع يحمل جانبا من التاريخ، وهذا الأخير أحالنا إلى المنهج التاريخي لكن بصفة ضئيلة، وما غلب على الدراسة عموما المنهج الاستنتاجي والاستقرائي. ولعل المقارنة بين أنماط الفكر في العصر الحديث اجبرنا على التحليل والتركيب واستقراء معظم الأفكار الصورية والواقعية بغية الخروج بأهداف عل النحو التالي.

أهدافه:

محاولة تحديد وضعية النص كمشكلة إزاء أزمات الوطن العربي.

معرفة إمكانية وجود سيادة فكرية فعلية للنص الوضعي تحفظ مكانة المفكر العربي.

إبراز مكانة الإنسان العربي كمفكر تتجلى فيه كل شروط العلمية.

إعادة تجديد الثقة والتوازن بين المفكرين داخليا وخارجيا رغم اختلاف توجهاتهم.

المزاوجة بين أصالة الفكر ومعاصرته لتشكيل نموذج حضاري يخدم الإنسان دون الانسلاخ من الهوية الأصلية.

I.1- التعريف بأبي عبد الله السنوسي.

يقول ابن القاضي في حق العلامة السنوسي:

«الإمام المعقولي، الفقيه، المحدث، الفرضي، الحيسوبي، صاحب العقائد التي لم يأتي أحد بمثلها من المتأخرين» (السنوسي أ.، ثلاث عقائد أشعري، 2012، صفحة 13)

غايتنا من هذه الألقاب الإشادة بمكانته المعرفية التي من خلالها نقف على جانب يسير من حياته الاستثنائية، متناولين بذلك أثره العلمي والسياق التاريخي لمشروعه الإصلاحي الذي وقف عليه لإحياء مرجعية نصوص الشرع وكذا نصوص العقائد؛ ولعل في سيرة السنوسي بوصلة هادية للعيش في زمن كثر فيه التيه العقدي فضلا عن التيه الديني. أما سيرته وحياته الاجتماعية العلمية وغيرها لم ندرجها بحكمها مستفاضة في الكتب والمكاتب ناهيك عن البحوث العلمية والسير الأعلامية.

ولد الإمام محمد بن يوسف السنوسي عام (830هـ/ 1427) (السنوسي أ.، شرح أم البراهين، 1351هـ، صفحة 02)، وتوفي سنة (895هـ/ 1490م) (مريم، 1908، صفحة 244)يعد المؤسس الأبرز للمذهب الأشعري بصورته التجديدية -النص العقائدي-في المغرب الأوسط. وتأسيس أي نص أو التمكين له لهو حدث حضاري كبير، وكل نص يواكب سياقه يكون متسلحا بمقولاته وأدواته الملائمة لزمانه، وهذا ما ينطبق تماما على نصوص السنوسي العقدية بالمغرب العربي. والحقيقة أن من يَفْصِل مشروع النص عند السنوسي الإصلاحي والإبداعي عن أزمات عصره وفتنه السياسية والدينية المتجلية في تشرذم المغرب العربي إقليميا وثقافيا ودينيا وعقائديا، لن يصل إلى عمق هذا المشروع –النص العقدي-ومراميه البعيدة.

لقد كان السياق التأسيسي لهذا المشروع جملة من المواقف المذهبية والدينية، فقد اعترضت الأولى مقاصد السنوسي العقلية، وأحجبت الثانية طموحاته الإصلاحية في العقيدة. فأقبل على العلم الشرعي باعتباره بوابة ينفذ من خلاله إلى كل عقل، صارفا وجهه عن كل مطمع سياسي أو منصب دنيوي.

2.I-مكانة السنوسي العلمية:

إن الشيء الذي يتخلل إلى ملاحظاتنا هو أن نضع نصب أعيننا الدور الذي يلعبه السنوسي بوصفه النقطة المرجعية للحديث عن علم الكلام في القرن الخامس عشر ميلادي. باعتبار السنوسي كغيره من المفكرين العظماء أمثال الثعالبي والمغيلي. لكنه تفرد، باعتباره معلما روحيا ومفكرا زاهدا. مما اضحى به الأمر إلى النظر في تنظيم عقائد دينية، فاعتمد في تنظيمه مقياس تدرج به من العموم إلى الخصوص، أو من عموميات المعرفة(الإنسان) إلى خصوصيات العقيدة، فكانت أول بداياته أن أسس عقائد دينية، وأولى هذه العقائد "أم البراهين". شكلت هذه الأخيرة شيعة دينية تربوية رفعت بمؤسسها إلى مستوى السلطة، باعتبار أن السنوسي وَجه فكره إلى الدين واتخذ منه منحى فكري وآخر صوفي، ساعيا به إلى فصل إرادي بين الروح والجسد الذي هو سجن لها بغية الارتفاع بها(النفس) نحو الاتصال بالله، في سياسة تقتضي إيجاد رابط بين الإنسان والله. وهذا يحيلنا إلى أن الاتصال بالله يكون مثالا للنظام الذي يجب تطبيقه عبر العقائد السنوسية. وشرعية هذا الأخير تتجلى في معرفة فحواها ومقصدها.

لكن لماذا العلامة السنوسي دون غيره من أعلام العقيدة والتصوف. لأن أعماله اختزلت القيمة العلمية والموضوعية والواقعية في الأواسط العلمية والعامية فضلا عن المركزية الجزائرية والمغرب العربي. ونعتقد أن السنوسي شكل ولا زال يشكل موضوعا محوريا معاصرا لنا في كثير من القضايا، لما ينوط به من دور فعلي ووظيفي على مستوى الفرد والمجتمع والأمة العربية. وكيف لا وقد عالج قضايا شائكة مست اهتمام الإنسان والله.

II. ماهية النص الفلسفي: يعالج هذا المبحث أثر النص في فكر الفلسفي والديني، لذلك جاء في مطلبين، يتضمن أحدهما تجليات النص عموما، أما الآخر فمقيد بخصوصية النص عند السنوسي.

1.II -تجليات النص : لا جرم أن فعل التفلسف يبدأ من النص وتاريخ الفلسفة يثبت هذا، ذلك أن الفلاسفة لا يفكرون إلا من خلال نصوص أو مقارعة نصوص فلسفية أخرى، ولا نبالغ إذا قلنا إن الفلسفة عبارة عن نصوص وتفكير حول النصوص، إنها نقاش بين النصوص. من هنا يغدو النص ذا أهمية بالغة في عملية بناء المعرفة. فمن خلاله تتحقق كفاءة الفرد لغويا وبرهانيا وموقفا.

فالمجتمع العربي مثلا ظل وَفِيٌّ للنص الديني من جهة، لا يرضى بغيره بديلا، فاهتدى إليه العام من الناس قبل الخاص من العلماء، فحماه الخلفاء والأمراء والملوك. وساروا على خُطى أوامر ونواهي النصوص الدينية فهما وعملا بقوة العقل ورجاحة الرأي. ومن جهة أخرى ميلاد النصوص ناتج عن مخاض العقول الراقية. وفيما يلي نص للسنوسي يقول فيه:

« لقد أوتيت أيها العقل قوة عظيمة وخاصة كريمة قدرت بها على قمع الخيالات والأوهام وشرفت بها على كثير من العقول ذوات الأنظار السديدة والأفهام» (السنوسي م.، 2011، صفحة 69)

من منطق العقل العملي الصحيح، لا يزال النص بلسم الروح الذي يعالج كثيرا من أمراض العصر المعرفية وفتنه المتجددة، بحكمه جوهر المعرفة وروحها. وعلى هذا النحو تجدر الإشارة بداية إلى أن ما يتم البحث حوله في مسألة النص؛ لا تمد للنص الديني الأصلي بصلة. بل الحديث حول النص البشري-الوضعي-الذي أحدثه الجو المشحون بالأزمات الابستمية والعقدية، خاصة تلك المعرفة المتعلقة بين الإنسان والله وما يشوبها من سوء الاعتقاد.

يعد النص البشري في العلوم الإنسانية وكذا الاجتماعية من القضايا الأساسية اليوم، مما أضفى عليه مكانة مرموقة في المجتمع الإسلامي، ناهيك عن المجتمعات الأخرى. إلا أن النص الوضعي يَحْمِل أبعاد مختلفة واضحة تارة يبني بها الباحث صرحا معرفيا وغامضة تارة أخرى ليساء إليه بذلك أبلغ إساءة.

والغرض من النص، العكوف على مضامينه ومقاصده والانقطاع به إلى العلم والمعرفة والإعراض عن الجهل، وسواءً حصل القصد من النص –الفهم-أو لم يحصل من إقبال العامة عليه فقد كان للنص دائما وأبدا صولة ودولة.

تعد النصوص المعرفية بمشاربها المختلفة، ومرجعياتها السنية السليمة، الوعاء الذي احتضن قيم وسلوكيات المجتمع العربي والإسلامي. ونص السنوسي العقدي هو أحد باراديغم -نموذج إرشادي تتبناه جماعة علمية ما ويؤطر أبحاثها من الناحية النظرية والمنهجية، ويدوم في فترة زمنية معينة-المغرب العربي، إذ حمته عقائده من مختلف الهزات التي اعترضته داخليا وخارجيا. وتمثل العقائد السنوسية في مختلف زواياها المنتشرة في ربوع الجزائر وإفريقيا أحد أبرز الطرق التي اضطلعت بمهام وأدوار مختلفة شملت فهم القرآن وعلومه من فقه وأصول ولغة وأدب. فضلاً عن غرس قيم التوحيد والألوهية والربوبية.

يبرز النص أهمية معرفية وأثر السنوسي على سلوك الفرد وحياة المجتمع عبر مراحل التاريخ المختلفة المتأخرة، وتناول شخصية السنوسي كأنموذج، نظير ما تميز به من خصال ومناقب، واضطلع لحقيقة العقائد وموسوعيته في ذلك.

2.II -خصوصية نص السنوسي: يخبرنا تاريخ الفكر البشري الإسلامي أن المفكرين المسلمين قد عَبَّروا بعد فجر الإسلام عن الجدل حول طبيعة المعرفة وأشراطها. كما يخبرنا أن البعض منهم اشتط فأنكر مكانة المعرفة من حيث المبدأ فحسبوا أن البشر -بطبيعتهم -غير قادرين عليها، وأن بعضا آخر منهم قد ارتأى أنها نور يقذفه الله في صدور من يصطفيهم من عباده ويحجبه عن المارقين، وفضلا عن ذلك كله ثمة من اعتد بالعقل بوصفه سبيلا أوحد للحصول على أي نمط من المعارف. بيد أن الإجماع في الأوساط الفلسفية لم يحصل دون قيام الجدل بخصوص مدى ملاءمة التصورات التي تعنى بتحديد طبيعة " الشواهد" التي تكفل صحة المعتقدات، وتلك التي تعنى بتحديد الشروط التي يكفل تحققها في تعين مفهوم "الصدق" أي ما صدق بعينه بنص أو بآخر. لقد اجتمع الفلاسفة على أن المعرفة اعتقاد صادق مبرر مع اختلافهم بخصوص دلالة مفهومي الصدق والتبرير.

لقد دأب المسلمون إبان ازدهار حضارتهم، على دراسة الديانات البشرية المختلفة القريبة منهم والبعيدة على حد سواء. لأنهم أدركوا في هذا العهد المبكر ذلك الأثر القوي الذي يتركه الدين في نفوس الناس وسلوكهم حتى قيل إن العقائد والشعائر الدينية يمكن أن تكشف عن طبائع الشعوب والأمم.

هنا لا بأس في أن نحاول أن نصوغ على نحو أكثر دقة تأثير جميع المجتمعات العربية بالعقائد السنوسية، يقول الملالي بهذا الصدد مبّينا التفاعل الاجتماعي قائلا:

«يكفيك في ذلك عقيدته "الصغرى" التي يتداولها العام والخاص شرقا وغربا، لا يعادلها شيء من عقائد العلماء ولا ممن تقدم ولا ممن تأخر؛ لما فيها من إدخال جميع عقائد الإيمان تحت كلمتي الشهادة» (السنوسي أ.، رسائل الامام أبي عبد الله محمد بن يوسف السنوسي، 2013، صفحة 23)

انطلق السنوسي في تحديده الجديد لنصوص عقائد التوحيد من التأكد على أنها نصوص جلية متصفة بالوضوح وليست عقائد مبهمة. وأن النص المعقد يقود إلى سوء فهم في لب العقائد وشكلها فضلا عن وحدتها. منبها إلى أن مصدر الخطأ في إدراك حقيقة النصوص العقيدة نابع من طبيعة الأسئلة التي طرحت في الساحة الفلسفية عبر أزمنة قريبة وبعيدة من أجل استجلائها. فهو يرى سؤال: ما العقيدة؟ أو ما مصدرها وأصلها؟ قد لا يكون في محله، وأنه ينبغي بالأحرى أن نتساءل عن الكيفية التي تتحقق بها، أو كيف تمارس العقيدة نفسها وتظهر إلى الفعل؟ ومن ثم اتجه إلى هدم نوع من المفاهيم التقليدية، حيث رفض ضبابية المفهوم في العقيدة، وأن المفاهيم الدينية خاصة العقيدية مستقلة عن المفاهيم الفلسفية، وأي محاولة لتقريب المفاهيم بين الفلسفة والدين يكون خرقا للمنهج المعرفي السليم.

إن هذه النصوص العقائدية التي قدمها السنوسي تجعل من السلطة حاضرة في كل مكان، ليس لأنها تتمتع بقدرة جبارة على ضم كل شيء تحت وحدتها. بل لأنها تستقطب من أهل العلم والمعرفة من هم على دراية بحقيقتها، وإن صح القول فقد وصلتنا نصوصه العقائدية عن طريق أقلام أكابر العلماء المشهود لهم بالعلم والفضل، وعن طريق تصانيفه التي رزقت عند الناس القبول وعم عنها عند أهل العلم والفضل الثناء فتستقبل عبارتها بكل قبول ومحبة وشغف قلبي. بل وتفتح النطاق حتى لذوي الرؤئ البسيطة.

III. أثر السنوسي على الفرد والمجتمع والأمة الإسلامية.

لعلنا نلتمس في استراتيجية النص العقدي السنوسي ما لا نلتمسه في غيرها ضمن علم الكلام التقليدي، من آثار وفعالية على مستوى الفرد وكذا المجتمع بمختلف شرائحه، فضلا عن تأثيرها على الأمة العربية الإسلامية. وبهذا الطرح يدفع السنوسي إلى رفض مسلمة الانكباب على معارف الفرق الكلامية التقليدية المختلفة دون أن يلتمس الباحث حقيقتها وتوجهها.

III.1-أثر السنوسي على الفرد :

عندما نغوص في صفحات عقائد السنوسي ندرك جيدا أن الرجل تمكن من إرادة الفرد العربي المسلم وشخّص العقد التي تؤرق عقيدته، لذا نجده يصب جل اهتمامه على الفرد قبل المجتمع، لأن مثل هذا الفرد أضحى نفسيا منهاراً معرفياً ومقلداً مذهبياً، خاصة تلك النفوس المنهزمة ثقافيا، فضلا عما تعانيه من فتن –حروب-عصرية ساهمت هي الأخرى في تأزمه، لذلك نقل عن محمد السنوسي ما يلي:

«إن النفوس في هذه الأزمنة المتأخرة قد يمنعها من الاجتهاد في العمل الصالح ورياضة النفس عنها أن الوِلاية قد طُوِيَ بِساطها فترى أن الاجتهاد لا فائدة فيه» (مريم، 1908، صفحة 06)

لهذا السبب راح السنوسي –ولمدة طويلة من الزمن-يستحثّ الهمم ويدفعها إلى امتلاك العزيمة وروح المبادرة لبعث فرد إيجابي منطلق من الذات على أساس أن التهيئة النفسية في أي ميدان تعد أكثر أهمية من إعداد الوسائل الأخرى. فاستعمل كل الطرق الممكنة لرد الاعتبار للشخصنة المفقودة في الذات العربية، وأول السبل سلكها هو الدليل الرباني، القائل في محكم تنزيله:

﴿ وفي أنفسكم أفلا تبصرون وفي السماء رزقكم وما توعدون فورب السماء إنه لحق مثلما أنكم تنطقون﴾(21)

إن الآية الكريمة تلخص كل معاني النظر إلى النفس من جميع جوانبها دون الالتفات إلى الغير، وهذا دليل على أن عظمة النفوس لا تضاهيها عظمة، ولكن أين يكمن سر العظمة؛ إنه في عنصرين **عقل يدرك وقلب يحب.** بل إن عقائده المختلفة انطلقت من أرضية هذه الآية، ولعمق التحليل فاض من خلالها ما سدد العقول وأصلح القلوب وهذّب المذاهب ولملمت شمل عوالم النفوس قبل عوالم الشهود. ولا ريب أن تأشيرة المرور إلى غيابات النفوس يستوجب منا المرور على سر عظمة الذات على النحو التالي:

أولا-عقل يدرك: يعد العقل منارة تضيء للإنسانية طريقها في ظلمات العصور الحديثة والمعاصرة فهي عصارة فكر عالم استثنائي –السنوسي-تجلت على الأراضي المغربية فقَلَبَتْ الموازين الفكرية لصالح العقيدة الإيمانية، فلا مجال للتعايش تحت لواء المعتقدات المنحرفة. فعقل المؤمن القوي أكبر من أن يتفاعل مع القضايا المبهمة، بل ينفعل لصالح الانتصار الذاتي، بيد أن الإيمان الصحيح ممزوج برجاحة الفكر والعقل. فلم يكن السنوسي مقلدا بقدر ما كان محكّما للعقل فقد وجدناه يخلف الأشعري ويرجح قول إمام الحرمين، ويخالف إمام الحرمين ويختار قول الرازي (التلمساني، 2011، صفحة 115). فضلا عن قوله أن:

«الحكم العقلي ينحصر في ثلاثة أقسام: الوجوب، والاستحالة، والجواز» (السنوسي أ.، شرح أم البراهين، 1351هـ، صفحة 27)

فالإدراكات العقلية الواردة في النص إنما هي أسباب لصحة العقيدة والإيمان، فالواجب على المكلف معرفة ربه بقوة الذهن.

ثانيا-قلب يحب (صفاء القلب) (الشّابي، 2018، صفحة 444)**:** تجدر الإشارة إلى أن التصوف تجربة ذوقية ذاتية تختلف من صوفي إلى آخر، وعنوان هذه التجربة "المحبة"، وهي بحق أحد تعاليم الصوفية في جوهرها إذ بها يحصل تطهير الذات والباطن من براثن الشهوات وهذا مسلك السنوسي ويمكن أن نصطلح عليه بمسلك التخلية والتحلية ومفاده عند السادة الصوفية أن جمال الأشواق النفسية يكون بخلية النفس من ملذات الدنيا بكل أشكالها وتحليتها بالحب الإلهي الذي يسمى بروح الفرد إلى عالم الأنوار، وقد صح عند أهل السلف أن أهل الشهود عبروا بنور القلوب.

إن من بين تأثيرات السنوسي على الفرد تأثيره على قلب المسلم لأن صلاحه بصلاح قلبه " **ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب"** (النووي، 2019، صفحة 11)، يدرك السنوسي أن مقام المحبة عند السادة الصوفية مقاماً عاليا وليس بوسع أي فرد إدراكه، لكنه نجده يجاهد الوضع المتأزم من أجل إنقاذ ما يمكن إنقاذه. ليس قولا فقط، بل فعلا تجسد في سلوكيات حياته وأقل ما يمكن الإشارة إليه أنه شديد البكاء والحزن، وهي بحق من الأعراض التي تطرأ على الصوفي. فالدموع بعدما كانت رمزاً للألم والحزن، أصبحت علامة الصلاح والورع بحكمها ندم وبكاء على الخطيئة.

III. 2-أثر السنوسي على المجتمع.

لا يخفى في تاريخ شمال إفريقيا في عصر السنوسي، أن مجتمع المغرب العربي عانى كثيرا جراء غياب السلطة المحلية والمركزية لحل مشكلاته على مختلف الأصعدة خاصة الصعيد المعرفي والعلمي تاركة الفراغ للصوفية. وتعد سياسة ملء الفراغ العلمي والمعرفي المخَلِّص الوحيد لعماء الصوفية –السنوسي-وكذا بقية المجتمع المغربي. مستعينا -أي السنوسي-بالطرق السليمة والحلول المستندة للقوة الروحية لحل أزمات الناس بخطاب جديد يميل إلى تجديد العهد مع الله والإنابة إليه والدعاء طلبا لتفريج الهموم وإزالة الأحزان والتخفيف من حدة المشاكل ليصبح الشيخ السنوسي بديلا يحتضن المجتمع الجزائري خصوصا والمجتمع المغربي عموما. ولأن مثل هذه المجتمعات ليس من السهولة بمكان حكمها أو تسّيسها أو إخضاعها بحكمها مجتمعات قبلية تسيرها قوة العصبية، فحسب ابن خلدون هي:

« تظن في نفسها منعة وقوة» (خلدون، 2011، صفحة 99)

في هذا إشارة إلى حمية العرق من خلال حب شيوخها للتسلط والرئاسة لأن الأنفس جبلت على ذلك، وكثيرا ما تضرب الأمثلة ببلاد المغرب لكثرة عصبياته، والعصبية حامية لها من كل نظام سياسي. لكن على غير العادة النظام الحامي لها في هذه الحقبة يتمثل في الشيخ محمد السنوسي باعتباره أحد أعمدة الصوفية.

ولكن ما هو السبيل إلى تسّيس مجتمع قبلي عصبي؟

إن خصوصية المجتمع المغربي بكل أصنافه وفآته الخاصة والعامة يؤمن إيمانا بالخوارق كما سماها إبن خلدون، أو كما تعرف باسم الكرامة (يعرفها السنوسي بقوله: إنما كرامة الولي في إجابة دعائه لا في غيره. ولا يجوز التحدث بها إلا بعد موت صاحبها) هذه الأخيرة تعد خلاصا لهم، وقد تجسد هذا الفعل في شخص السنوسي على نحو إيجابي أي أثره باديا في دفع الضرر وجلب المنافع للناس وتدخله يعد إعانة للناس على فقرهم أو كسب رزقهم أو إعالتهم بالمال والدعاء بنزول الغيث أو النهي عن المنكر السياسي من الخارجين عن قيم الدين. ساهم هذا الدور في زيادة تعلق الناس بالشيخ السنوسي –الصوفي-وحبهم له وتبجيله لتتسع الهوة أكثر بين الشيخ والسياسة، وتضيق بينه وبين العامة، ويصبح السنوسي صاحب سلطة صوفية ومعرفية وعلمية على مستوى الشعور الجمعي لتجرده من الدنيا والزهد فيها متطلعا إلى مجتمع الفضيلة رغم تنافس رجال السلطة وفئة من العلماء على الدنيا ناسين هموم الناس.

III.3-أثر السنوسي على الأمة الإسلامية:

الحقيقة أننا عندما ندرس النص في علم الكلام السنوسي نجده متوافقا مع المنطق الصحيح، إذ لا نجد أثر للوثنية اليونانية، ولا لانحرافات المنحرفين من الفلاسفة في علم الكلام الذي أبدع فيه أيما إبداع، وهذا ما جعل كتبه تستحوذ على العالم الإسلامي ما يزيد على خمسة قرون، بل يعود الفضل في الحفاظ على العقيدة الأشعرية في الجزائر خاصة رغم ما تعرضت له من ظلم الاستعمار وحملات التبشير والتنصير. وإذا كان السنوسي قد عمل على أسلمة المنطق متأثرا بالغزالي (أسعد، 1987، صفحة 218) فقد ربط المنطق بمقاصد الشريعة، وقربه للعامة ليكون في متناول الجميع بعدما كان حكرا على الخواص من العلماء، وجعل شرحه على مختصره في علم المنطق يهدف إلى تحقيق هذا الغرض؛ إذ ذّيل خطبة الشرح بقوله:

«والله أسأل أن ينفع به وبأصله، الغبي والذكي، والضعيف والقوي» (الزهري، 2008، صفحة 63)

وليست تصانيف السنوسي في المنطق ونصصه في علم الكلام وكذا التصوف إلا إبداعا في حقيقة الجمع بينهما، فما كان من هذا الجمع إلا خدمة للعقيدة الأشعرية، وعملا يقرب به الناس على اختلاف عقولهم وفهومهم وأعمارهم، وهكذا صار العامي يقرأ علم الكلام والمنطق، ولا ينفر منهما.

ومن جملة المتأثرين بنصوص السنوسي، المتصوفة الذين نجد لهم تهافت على كتبه لما سلكه السنوسي من استراتيجية الرفق في الإعراض والمخالفة بدل السب والشتم والتبديع، بل ويقابل ذلك بالتوجيه والإرشاد، وبيان ما يجوز وما لا يجوز بالمودة والحسنى والحجة والبرهان. ويضيف العلامة الصباغ الجزائري في فهرسته الشهيرة في حق عقائد السنوسي:

«أخذت العقيدة المعروفة بالسنوسية وأم البراهين والمقدمة المعروفة بالمقدمات والمقدمة المعروفة بالصغرى ثلاثتهم (كذا) للإمام السنوسي وشروحهم كذلك على خلق كثير منهم أستاذي المرحوم الشيخ إبراهيم ابن الشيخ موسى المنشاوي... وهو تلقاها عن خلق كثير منهم الإمام سيدي يحي الشهير بالشاوي ...عن الشيخ سعيد الشهير بقدورة...عن محمد المقري...عن إبراهيم التازي» (الجزائري، 1983، صفحة 273، 274).

وأمارة تأثير نصوص العقيدة السنوسية تظهر في السلسلة العلمية الشهيرة التي تواترها معظم العلماء، ناهيك عن شيوعها في الأوساط العامة.

ولعل الدلالة الجوهرية لتأثير العلماء بأمتهم –نعني السنوسي-تجلى في النص الأفلاطوني حين قال:

"إن العلماء يؤكدون [...] أن السماء والأرض والآلهة والناس، مرتبطون حقا بالصداقة واحترام النظام والعدالة والاعتدال، ولهذا السبب نراهم يسمون العالم بنظام الأشياء، لا بعدم النظام والفوضى"(افلاطون، 1970، صفحة 125)**.**

في هذا الصدد تمثل المحاورة خطوة أولى على طريق المؤدي من تصور النفس كأصل للحياة إلى التوجه السنوسي الجديد نحو عقائد الإيمان. والمسألة هنا علاقة الأرض بالسماء أي علاقة الإنسان بالله وليس العكس، إذ هي رابطة دينية بالضرورة. ولكن كيف يتم تجسيد نظام بين الإنسي والديني؟ يجيب السنوسي بقاعدة تجريدية يفضي فيها إلى ضرورة إسقاط القاعدة الكلاسيكية من منظومة العقائد، بموجب الاعتقاد والإيمان. وعلى قدر توفر القواعد الدينية النظامية المتمثلة في الاحترام والعدالة والصداقة بقدر ما يبنى مجتمع منظم مصلح. وإذا اعتبرنا السنوسي من السباقين الذين وضعوا نقطة وصل بين العبد وربه. فإن التاريخ العربي يعرض لنا المسألة ذاتها من عدة منابر، فهذا مولود قاسم يرى في الدين نظاما للحياة في النص التالي:

«**من الضروري أن نقوم بهذا الجانب من التربية لأبنائنا، لأنهم عندما يسمعون بنظام اجتماعي في هذه البلاد أو تلك في العالم يظنون أن الإسلام خال من ذلك، وينظرون إلى الجانب السلبي فقط الموجود حاليا، والإسلام دين وحضارة، والحضارات قد يبقى فيها الجانب الديني والجانب الروحي كما كنا، ولكن الجانب الحضاري، والجانب الإنساني الذي هو إسهام الإنسان في تطبيقه لهذه التعاليم الدينية، يعتريه التقهقر، يعتريه جمود وركود، ويعتريه الانهيار»** (الجوهري، 2012، صفحة 231، 232)**.**

يمكن القول إن الخطاب يستهدف صنفين من الناس، فريق منهم يبنى معرفته – في الوطن العربي-على حال تزمتي لا يصلح لهذا الزمان. في حين يمكن إضفاء الشرعية على الفريق الثاني بحكم الإسلام دين حضارة. أي الدين نظام قبل كل شيء وليس فوضى، دين عقدي إيماني، دين تقوى لا فساد. فالمرجعية الإسلامية مرجعية عالمية، ليس بحكم الانتماء، ولكن بحكم النظام الطبيعي –القانون الطبيعي-الذي يؤسس لبناء مجتمع تحفظ فيه كرامة الإنسان. فالقضية قضية أذهان وليست أعيان، فالذهنية السليمة تتوخى الحقائق العينية، وتستبصر المرجعية الأصيلة.

IV.نقد العامة من المجتمع:

إن مفهوم العامة يحمل صبغة مأسوية في معظم الأحيان وكطبقة اجتماعية نجدها تتذيل المراتب لذا نلتمسه كمفهوم ضبابي في استعمالات الدراسات الحديثة والمعاصرة. لذا فهو يحمل عدة دلالات منها:

«العوام كالهوام» (الله، صفحة 234)**.**

وهذا النص مقتطف من رسالةأحد الكتاب يـُجَّل في الحديث للخاصة مادحا العلماء، وينبذ فيه العوام ويهجوهم بأحط الصفات. بهذا المعنى يغدو مفهوم العامة مفهوم سلبي لدى الفئات المثقفة خاصة الكتاب القدماء فهم ينعتونهم بمرادفات تحقيريه مثل الرعاع، والغوغاء. ولا ندي كيف أوحى للسنوسي أن عقائده لجميع فئات المجتمع مع العلم أسلوبه أسلوب سهل ممتنع.

ويمكن تقريب نظرية فيثاغورس الكلاسيكية إلى نظرية العقيدة السنوسية، بما جاء في محاورة "جورجياس" لأفلاطون القائل:

«العمل إزاء الناس بما يليق هو مراعاة العدالة، والعمل إزاء الآلهة بما يناسبهم هو مراعاة التقوى، وبهذا تكون مراعاة العدالة والتقوى هي أن يكون الإنسان بالضرورة عادلا وتقيا» (افلاطون، 1970، صفحة 125).

تحاول محاورة جورجياس، بمعنى معين أن توضح توضيحا شافيا لمشكلة التقابل بين الإنسان والإنسان من جهة، والإنسان والآلهة من جهة أخرى، عبر مسار تجديدي في اليونان، تمخض عن المسار التجديدي حركة إصلاحية تمثلت في إقامة علاقات اجتماعية وأخرى لاهوتية. فالعلاقات الاجتماعية يستوجب فيها مبدأ أخلاقي، تجسد في مبدأ العدالة. وأما العلاقات الإنسانية الإلهية فتكون إزاء مقامات روحية كالتطهير عند الفيثاغورين، والنرفانا عند الكونفوشوسين، والتقوى عند المسلمين. والشاهد أن العمل إزاء الله يستوجب مراعاة هذه الصلة حتى لا يشوبها زيغ. ومفهوم التقوى الواردة في النص تعد منعرج أساسي في إدراك قيمة العقائد. أو بالأحرى مقدمات العقائد تقودنا إلى نهايات إسلامية صحيحة نلخصها في مفهوم "التقوى".

ولا نبالغ إذا قلنا إن نص السنوسي العقدي تجاوز حدود زمانه المعرفي حين أعلن تفرَده في التاريخ بقوله:

«التاريخ الإسلامي بأكمله، لم يشهد؛ عبر تاريخه الطويل؛ شخص عرفت مؤلفاته العقدية، هذا الكم الهائل من الاهتمام، مثلما عرفته مؤلفات السنوسي» (السنوسي أ.، ثلاث عقائد أشعري، 2012، صفحة 18)·

لعل الدافع إلى هذا الطرح بهذا الشكل المطلق، ما أحرزته هذه النصوص من تأثير في نفوس الأفراد والمجتمعات العربية بحكمها مست جانب الإيمان والعقيدة لديهم. وإذا كان لكل قوم حضارتهم في ميدان من العلوم فإن حضارة المجتمع العربي الحديث تجلّت في نصوص العقائد السنوسية تعديلا وترشيدا، بل ونفوذا إلى قلوبهم قبل عقولهم وخواطرهم، حينها وجدنا دافعية في عمق النفوس المؤمنة تجلت في تصورهم لمفهوم العقيدة وتجسيدهم المطابق لما هي عليه في حقيقتها التي جاءت في النصوص، خالصة من أي زيادة أو نقصان أو تغيير أو اضطراب، وكأن صاحب النص أراد أن يضفي عليها شيء من العالمية والشمولية.

V. خاتمة:

يتبيّنن مماتقدم ذكره من تحليل لواقع النص العقدي السنوسي أن فاعليته تجاوزت حدود الذات في الساحة العربية الإسلامية، وأضحت لحظتها قوة علمية معرفية أوحت بالامتداد والتكامل في صناعة إنسان إيجابي، وحضاري، فاعل في كل الظروف. بهذا المنظور نستطيع القول إن مشروع محمد السنوسي انعكاس للواقع الاجتماعي الذي عاشته الجزائر خصوصا، ومجتمع المغرب العربي عموما. ومن النتائج المستخلصة ونقاط البنائية في السلم المعرفي، يمكن القول أن:

النص عنصر فعال في أي نهضة اجتماعية، ودينية وثقافية، وحتى سياسية وحضارية.

السنوسي صاحب رؤية حضارية شاملة انعكست نظرته الشمولية إلى حلحلة المشاكل التي يعيشها المجتمع العربي والعالم الإسلامي وفق أفق تجديدي بنائي للفكر الإسلامي من خلال إعادة النظر في معظم الأنظمة المعرفية، بما فيها العقيدة والمعتقد الصحيح.

أصالة نصوص السنوسي ومعاصرة مناهجه أضحت به ناقدا فاعلا وممنهجا منفتح على المناهج والأدوات، وكذا العلوم والمعارف الكلاسيكية والعصرية لإجلاء حقيقة الاعتقاد.

أثر النص العقدي ينطلق من ذاتية أفكار الشخص نحو صناعة الغير لذا نعتبره عنصر فعّال في الوسط العربي في سابقة من نوعها لما لاقاه من قَبول فكري وتجاوبا واقعيا وإيمانا وتجسيدا على مستوى الفعل للمعادلة العقدية الثلاثية.

المراجع:

ابن مريم. (1908). البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان. الجزائر: المطبعة الثعالبية.

أبو القاسم سعد الله. (بلا تاريخ). تاريخ الجزائر الثقافي (الإصدار ج02، المجلد 01). دار الغرب الاسلامي.

أبي زكريا بن شرف النووي. (2019). الأربعون نووية في الأحاديث الصحيحة النبوية (المجلد 02). دار الامام مالك.

أبي عبد الله محمد بن يوسف السنوسي. (1351هـ). شرح أم البراهين (المجلد 01). مطبعة الاستقامة.

أبي عبد الله محمد بن يوسف السنوسي. (2012). ثلاث عقائد أشعري.

أبي عبد الله محمد بن يوسف السنوسي. (2013). رسائل الامام أبي عبد الله محمد بن يوسف السنوسي. المغرب: دار الرشاد الحديثة.

أحمدبن مخلوف الشّابّي. (2018). مجموع الفضائل (المجلد 01).جمعية الشّابّي للتنمية الثقافية والاجتماعية.

افلاطون. (1970). محاورة جورجياس لأفلاطون. (محمدحسن ظاظا، المترجمون) الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر.

الذاريات/ 21. (بلا تاريخ).

السنوسي التلمساني. (2011). شرح السنوسية الكبرى. دار البصائر.

بوعلام الجوهري. (2012). البعد الدعوي في اعمال مولود قاسم نايت بلقاسم (المجلد 2012). دار الخلدونية.

خالد الزهري. (2008). الفقه المالكي والكلام الأشعري. بيروت: المكتبة العصرية، صيدا.

عبد الرزاق ابن حمادوش الجزائري. (1983). رحلة ابن حمادوش الجزائري. الجزائر: المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية.

عليوان أسعد. (1987). محمد بن يوسف السنوسي وشرحه لمختصره في المنطق. الجزائر: دار الكتاب الثقافي.

محمد بن يوسف السنوسي. (2011). شرح العقيدة الكبرى. الجزائر: دار كرداده.

كيفية الإستشهاد بهذا المقال حسب أسلوب APA:

عبد القادر شلحي ، عمر برابح (2024)، **سلطة النص العقدي في المغرب العربي...أبو عبد الله السنوسي أنموذجا.** ، مجلة الباحث في العلوم الإنسانية والاجتماعية ، المجلد 16(01)/ 2024، الجزائر : جامعة قاصدي مرباح ورقلة (ص.ص 199-208)